مشكلة الضرائب في عهد السلطان الزياني أبي تاشفين الأول(718/ 1318ـ 737/1337)

أ/ سهام دحماني
جامعة قسنطينة 2ـعبد الحميد مهري

ملخص

أبحث في هذا المقال عن مشكلة الضرائب في عهد السلطان أبي تاشفين الأول الذي قال عنه ابن مرزوق في المسند بأنه فرض ضرائب مجحفة حتى على أبسط ضروريات الحياة كالحطب والتبن. حيث فككت هذا النص وقابلته بنصوص أخرى معاصرة، حتى نعرف مدى صدق هذا الخبر الذي يعبر عن اتجاه الاسطوغرافية المرينية اتجاه سلاطين بني زيان المناوئين لهم.

Résumé

Je cherche dans se sujet le problème d'imposition dans l'époque d'Abou Tachfine (718-737) sultan Ziyanides ,puisque l'historiographe Ibn Marzoughe a dit que cet sultan obliger les gents de donner des impôts lourd . j'analyse ce texte avec un vision de comparaison par d'autre texte de la même époque .

مقدمة

ذكر ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ) في كتابه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن المريني بأن السلطان الزياني أبا تاشفين الأول فرض على أهل تلمسان وما حولها ضرائب مجحفة؛ حيث فرض حتى على البيض والحطب والتبن وما يحتاج إليه الناس في أمر معاشهم وظائف مخزنية. وهذا معناه أنه كان يشتط في فرض الضرائب على الناس، ونعلم أنه كلما زادت الوظائف على الرعية كلَّت نفوسهم عن العمل، وقل الاعتمار، وساءت أحوالهم، حتى أنهم يهجرون المنطقة التي تفرض فيها ضرائب فاحشة؟ لكن مؤرخين آخرين وصفوا دولة هذا السلطان بأنها دولة عدل وإنعام ورفاه، وهو عكس المتوقع. فما حقيقة توظيف الضرائب في عهد هذا السلطان؟.

سأحاول الإجابة عن هذه الإشكالية بإتباع الخطة التالية:

1/التعريف بالسلطان أبي تاشفين الأول وصفاته.

2/ سياسته في فرض الضرائب وجبايتها.

3/ سياسته في النفقات.

4/ الوضع الاقتصادي في عهده.

خاتمة.

1/التعريف بالسلطان أبي تاشفين الأول وصفاته: هو السلطان أبو تاشفين عبد الر حمن بن أبي حمو الأول حكم في الفترة من (718/ 1318- 737/1337). قال عنه يحي ابن خلدون(ت780هـ): "...وكان فاضلا حميد السِير، رحب الجناب، عظيم الخُلق، جميل الخَلق، في أيامه تحضرت الدولة، وأخذ الملك زخرفه وتزين..."[1]. وقال عنه التنسي(.899هـ): "...الملك الأرفع، ذو الجناب الأمنع، والحباء الأوسع، والحسام الأقطع، قامع المبغضين، ومدوخ المارقين، وممهد الأرضين...استولى على البدو والحضر واستخدم ربيعة ومضر...فكان ممن عاش سعيدا ومات شهيدا"[2].

1-أبو زكريا يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص.215.

2-التنسي، تاريخ بني زيان، ص.139، 140.

وتحدث ابن خلدون عبد الرحمن(ت808هـ) عن غزواته الكثيرة في الناحية الشرقية قسنطينة وبجاية بعد صلحه مع السلطان أبي سعيد المريني ملك المغرب في أول عهده، وتحدث عن حبه الكبير لتشييد القصور والبساتين والرياض[3] . أما ابن الأحمر فقد وصفه بأنه:"...كان فاسقا منغمسا في اللذات، خليعا لا يصحو من شرب الخمر، وكان فيه تخنث حتى سمي بزهيرة"[4]. ووصفه الصفدي(696- 764)هـ الذي عاصره- فعمره لما قُتل هذا السلطان سنة 737هـ كان 41 سنة- بأنه :"...كان شجاعا حازما موقنا بالشر جازما، جبروته زاد عن الحد حتى كذبه العقل وأباه، وناهيك بمن تجرأ وما تحرى وقتل أباه، وكان قد نظر في فنون العلم، وأنفق فيه عمره مدة، وتفقه على ابني الإمام[5]، وفسدت سيرته ونسي ورد الحمام، وتحُكى عنه في دولته قبائح، أما الراوي لها فكاتم وأما التاريخ بها فبائح..."[6].

لم يخبرنا الصفدي المؤرخ المشرقي عن مصدر خبره. أما يحي ابن خلدون والتنسي مؤرخي السلطنة الزيانية فكلاهما تناسيا حادث قتل هذا السلطان لوالده وأطنبوا في مدحه. وعبد الرحمن ابن خلدون ركز على أعماله وغزواته في الناحية الشرقية. ولم يذكروا جميعا ما ذهب إليه ابن الأحمر ولا ابن مرزوق في المسند وهذين الأخيرين من مؤرخي البلاط المريني.

3- ابن خلدون، العبر، مج7، ص.126، 129.

4ا-بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، ص.63.

5 أكبر الأخوين هو أبو زيد عبد الرحمن (ت 743هـ) شيخ المالكية بتلمسان العلامة الأوحد، وإسم أخيه أبو موسى عيسى(ت 749هـ). وهذان الأخوان هما فاضلا المغرب في وقتهما. كانا يذهبان إلى الإجتهاد وترك التقليد. فنالوا بذلك الشهرة في أقطار المغرب كله ما أثبت لهما في أنفس الناس عقيدة صالحة. وكانا مقربين من السلاطين الثلاث:أبو حمو الأول، وابنه أبي تاشفين الأول، والسلطان المريني أبو الحسن، يحضران مجالسهم العلمية. (أنظر، ابن الخطيب، الإحاطة، مج2، ص.201، 214،215، الماجري، البرنامج، ص.131، ابن مريم، البستان، ص.123،124، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص.166،167، 168، كفاية المحتاج، ج1، ص.264، 310، 313، 373، 375).

6 صلاح الدين الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج3، تحقيق خالد كثير، لنيل شهادة التعمق في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، تونس، جانفي 1993، ص.114.

كان لأبي تاشفين الأول رجال دولة هم: يحي بن موسى السنوسي على شلف وسائر مغراوة،محمد بن سلامة على بني يدلتن عصبة بني توجين، موسى بن علي الكردي على قاصية الشرق[7]. وكان كبير دولته مولاه العلج هلال القطلاني الذي"...استبد بالنقض والإبرام والعقد والحل صدرا من دولته الى أن نكب بعدها..."[8]. وكان ذلك بسبب منافسة بين كبيري دولة هذا السلطان؛ مولاه الوزير هلال العلج وقائد الجيش موسى بن علي الكردي، حيث وقع الفراق واشتد الخصام بينهما عام 728ھ بعد رجوع الجيش من غزوة الشرق، وبادر هلال الى تغريب موسى بن علي الكردي، ثم استدناه السلطان لما هلك وزيره هلال وقدمه على الجيش ومات مع سلطانه لما دخلها عليهم السلطان أبو الحسن المريني سنة 737ھ[9].أما نهاية هلال القطلاني فكانت على يد سلطانه حيث قتله بعد عام 728ھ بمدة[10].

كان السلطان أبو تاشفين الأول شديدا على عماله؛ فقد قتَل مثلاً والد الفقيه الكاتب أبو اسحاق إبراهيم[11] بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي

---

7. أبو عبد الله الأعرج، الشماريخ، حساني، ص.115.

8. نفسه، ص.115.

9-ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، ص.63، ابن خلدون، العبر، مج7، ص.133، 134، الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص.72.

10-أبو عبد الله الأعرج، المرجع السابق، ص.116.

11- توفي هذا الفقيه بمالي من أرض جناوة في عام 744ھ، قال عنه ابن الأحمر: إنه "...من بيت فقه وأمانة وخطابة، مع تجارة وأمانة، أصابته الغربة التي أسكن في بلاد السودان بها يسر به، ومازال يحن إلى وطنه...فمن قوله يمدح أمير المسلمين أبا الحسن علي المريني ملك المغرب، ويحرضه على قتال أمير المؤمنين أبي تاشفين العبد الوادي ملك تلمسان قاتل أبيه:

خطرت كمياد القنا المتأطر ورنت بألحاظ الغزال الأعفر

ضاقت يداه بها وقلّ نصيره فيها فطلقها طلاق المعسر

(يقصد السلطان أبي تاشفين الأول)(أنظر، إسماعيل بن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ص308،309).

الغرناطي المعروف بالساحلي، وبالطويجن، ولي أبوه الفقيه أمانة سوق العطر، حيث تكثر النفقات لاحتفال عيد الفطر[12]. ولم يذكر ابن الأحمر سبب قتله له. وتظهر شدته على العمال كذلك في رواية عن الطبيب أبي القاسم محمد بن أبي القاسم الشاطبي التلمساني أنه استدعاه السلطان أبو تاشفين الأول، فخاف منه وهابه وعرف بأنه معاقب منه[13]. وعن شدته على العمال قال أبو عبد الله الأعرج :"...ملكا هماما صاحب صرامة وشدة هذب الرجال وأحسن إدارة ملكه..." [14]. وجاء في أحد صفاته أنه :"...استولى على البدو والحضر، واستخدم ربيعة ومضر...فأخذ رياحا[15] أخذة رابية..."[16].

فكل هذه النصوص تبين شدة بأس هذا السلطان في الحرب وإدارة ملكه.

وبالمقابل كان محبا في أهل العلم يدنيهم من مجلسه، ويشاورهم في أمره منهم العالمين الراسخين الخطيرين ابني الإمام أبو زيد وأبو موسى[17]، الحافظان المشهوران شرقا وغربا[18]، دخلا تلمسان بعد زوال الحصار الطويل(798- 706)هـ فاغتبط بهما السلطان أبو حمو الأول والد أبي تاشفين، واختط لهما المدرسة بتلمسان فأقاما عنده على هدى أهل العلم وسننه، ثم مع ابنه أبي تاشفين[19]. فكانا مقربين من السلطان أبي تاشفين الأول، يحضران مجالسه العلمية، وقد

12-نفسه، ص308،309 .

13-ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص231.

14-أبو عبد الله الأعرج، المرجع السابق، ص123.

15-رياح الذين كانوا حول بجاية، قال ابن سعيد المغربي أنه من حد قسنطينة الى بجاية مجالات رياح(أنظر، ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص145، ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص162).

16-يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1،ص215، التنسي، تاريخ بني زيان، ص.139، 140.
ابن عودة المزاري، المصدر السابق، ج1، ص162.

17-الماجري، البرنامج، ص.131.

18 -ابن الخطيب، الإحاطة، مج2، ص201، ابن مريم، البستان، ص123، التنبكتي، نيل الإبتهاج، ص166

19-التنبكتي، نيل الابتهاج، ص.167، 168،كفاية المحتاج، ج1، ص.264.

سئل في أحدها الفقيه أبو موسى عيسى بن محمد بن عبد الله بن الإمام عن ابن القاسم هل هو مجتهد مطلق أو مقلد لمالك مجتهد في مذهبه على قواعده؟ فأجاب بأنه مجتهد في المذهب فقط لا مجتهدا مطلقا، ولا يمنع من كونه مقلدا اجتهاده في بعض المسائل[20]، ودار فيها الحديث بين أبناء الإمام والمشدالي والمقري في ذات المجلس[21]. وكان السلوي ابن حكيم الكناني يناظرهما في مجلس السلطان أبي تاشفين الأول، مثل المجلس الذي جرى فيه ذكر حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله، أجاب فيها أبوزيد ابن الإمام بجواب لم يعجب ابن حكيم الكناني السلوي[22]. والقاضي أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي(ت736هـ)،أحد قضاة العدل، وأئمة اللسان والآداب، ونفوذ الأحكام، والبصر بالوثائق، عفيفا طاهرا[23]،كان ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ[24].كتب الرسائل عند الملوك الأوائل من بني يغمراسن[25]. وكان قاضي الجماعة وكاتب السلطان أبي تاشفين الأول[26]، لا يبرم هذا السلطان أمرا إلا عن مشورته، قال عنه النباهي:"...كبير قطره في عصره نباهة، ووجاهة، وقوة في الحق، وصرامة..."[27].

أما عن نهاية السلطان أبي تاشفين الأول فقد جاءت على يد السلطان أبي الحسن المريني(731- 752)هـ الذي حاصر تلمسان ثلاث سنوات، ثم دخلها على أبي تاشفين عنوة في آخر شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلابا[28]، قال ابن الخطيب أن دخولها عليه كان في غرة شوال من

20- ابن الخطيب، الاحاطة، مج2، ص.214 ، 215، التنبكتي،كفاية المحتاج، ج1، ص.310، 313.

21-التنبكتي،كفاية المحتاج، ج1، ص.373، 375.

22-ابن الخطيب، الإحاطة، مج2، ص.215، ابن مريم، المصدر السابق، ص.124.

23-ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص.175، ابن مريم، المصدر السابق، ص.225.

24 -النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، 1983، ص.134، 135.

25-ابن مريم، المصدر السابق، ص.225.

26-نفسه، ص.156.

27 -النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص.134، 135.

28- . ابن خلدون، العبر، مج7، ص.131، التنسي، تاريخ بني زيان، ص.146

عام 738هـ "...فوقف هو وكبير ولده برحبة قصره موقف ثبات واستجماع وصبر الى أن كوثرا وأثخنا فعاجلتهما ميتة العز قبل شد الوثاق وإمكان الشمات، واستولى على ملك بني زيان ملك المغرب واندرج فيه الى هذا العهد"[29]. قال الزركشي عن هذه الواقعة:"...ودخلها لسبع وعشرين من شهر رمضان المعظم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، ووقف صاحبها في ساحة قصره فقاتل هنالك مع خاصته حتى قتل ابناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي وجملة من كبار أصحابه، وأثخنته الجراح ووهن لها، فقبض عليه ورفع الى السلطان...فأمر به فقتل واحتز رأسه..."[30]. وأسفرت هذه الوقعة عن خسائر مادية وبشرية كبيرة لأهل تلمسان، قال ابن الخطيب:"...هلك لهم من الأمم ما لا يحصيه إلا خالقه..."[31].

2/سياسته في فرض الضرائب: تحدث ابن مرزوق الخطيب(ت 781هـ) في المسند[32] عن ضرائب فاحشة فرضها السلطان أبو تاشفين الأول(718/ 1318-1337/737) على أهل تلمسان وما والاها، ثم أسقطها عنهم السلطان أبو الحسن المريني[33]، فحسبه كانت توظف على تلمسان وأحوازها ألقابا منكرة، "...منها ما كانت تعم به البلوى من المطالبات في الأبواب...ورفع فيها من المغارم ما كان شائعا خسيسا ويجتمع فيه أموال كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، واجحاف الضعيف بها أشد، وغير ذلك من المغارم...ومما رفع رضي الله عنه وظيفة مغرم الماء، وكان سقي الجنات يضطر

29 .- ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص.93،94 .

30 -. الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص.72، 73.

31 -ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص.232 .

32-محمد الرابع ابن مرزوق ،يلقب بشمس الدين، والخطيب والجد ،ولد بتلمسان سنة 711هـ ، له مؤلفات عديدة منها المسند الذي ألفه في سنة 772هـ في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز(768- 774)هـ، شغل وظائف مخزنية عديدة كخطيب السلطان وكاتب في عهد عدة سلاطين مرينيين منهم السلطان أبي عنان وأبي سالم ابراهيم، رحل الى القاهرة بمصر سنة 773هـ ، وهناك توفي سنة 781هـ (أنظر ماريا خيسوس بيغيرا، قسم الدراسة من تحقيق كتاب المسند ،ص.18، 19 ، 48، 65، 66).

33 -ابن مرزوق، المسند، ص285.

فيه الى مغرم للبراءة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب والخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر. ومما رفع رضي الله عنه ما أجريت عليه ألقاب باطلة، ووظفت فيه مغارم مهلكة كالحبل والمطوى، واللقب الذي يسمى باللسان البربري ايبزغدن، وهو عبارة عمن خرج عن وطنه لفقره وحاجته، ولم يترك مستغلا يطلب حيث كان من البلاد وإن كان فارق وطنه السنين الطائلة، وربما ينتهي العمل الى طلب ذريته، فيؤخذ منه ما يوظف على كل واحد ممن هو في ذلك الوطن يستغل ماله، وهي أحدوثة عظيمة في الاسلام وقعت فيها من الهموم والشناعات ما لا يحصى، حتى أن الشخص يغرم مع أهل الموضع الذي رحل عنه والموضع الذي رحل إليه..."[34].

هذا النص هو الوحيد الذي بين أيدينا الذي ذكر مسميات هذه الألقاب، فلم أجدها في أي نص آخر بحسب المصادر التي بين يدي، فابن مرزوق لم يتحدث عن هذه المغارم المجحفة في المناقب المرزوقية، بل تحدث عن عدد كبير من الجنات بالعُبَّاد أهلها يتهربون من دفع الخراج، وتجار يدخلون سلعهم من العباد للتهرب أيضا من الضرائب[35]، وأخبرنا التنسي (ت 899هـ)بإعفاء هذا السلطان للفقيه أحمد بن عمران البجائي اليانوي حين وفد على بلاده من بجاية تاجرا أسقط عنه مغارم تجارته وتجارة من جاء معه؛ لأنه كان محبا في العلم وأهله، يجزل لهم العطاء[36].

أما عن الجباة في عهده فقد تحدث ابن مرزوق في المناقب المرزوقية عن شدة عمال أبي تاشفين الأول في استيفاء الجباية من الرعية[37]؛ منهم يحي بن إبراهيم بن علي العطار، كان عاملا للسلطان أبي تاشفين الأول على العُبَّاد، يُوصف بأنه جريء وظلوم، رفع للسلطان أبي تاشفين الأول تقريرا عن حالات تهرب ضريبي في

34-ابن مرزوق، المسند، ص285، 286.

35-ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص228، 229

36-التنسي، تاريخ بني زيان، ص142.

37 -ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص228، 229

موضع العُباد، حيث كانت ترد السلع عليه، ويودعها التجار هناك ليتحيلوا في إدخالها الى تلمسان بدون ضريبة، وقال له بأن المجابي قد ضاعت بسبب ذلك، فكلفه السلطان النظر في الأمر، كان ذلك سنة قبل حصار السلطان أبي الحسن المريني تلمسان. وفي زمن الحصار أرسل السلطان أبو تاشفين الأول الى هذا العامل يطلب المال فبعث إليه رسولا يعتذر له بأنه لا يجد ما يعطي[38]. وكان عاملا على العباد أيضا رجل اسمه علي بن منصور، وكان يشق على الناس حسب رواية ابن مرزوق، فدعى عليه هذا الأخير "...فلم تمض إلا أيام فأخذ وطولب..."[39].

وذكر في المسند أن جباة مغارم الأبواب على السلع الواردة للمدينة يفتشون التجار تفتيشا دقيقا قاسيا حيث لم يكن "... يحترم فيه من الناس أحد، فيتولى المسلم نصراني ويهودي وخارجي ويحيطون به فيفتشونه من رأسه الى قدمه ظاهرا وباطنا لما عسى أن يدخل به من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم، وحتى النساء يوكل بهن يهوديات يفتشنهن ويدخلن يديهن الى لحومهن، وفي هذا من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى..." [40]. فكان لأهل الذمة ولاية على المسلمين في المجابي،"... وكانت المصيبة بذلك داهية ..." [41]. وكانوا يعاقبون من يخفي السلع عن المغرم بمغرم يسمى تضعيف المخزن[42].

لكننا نعلم من مصادر أخرى أن من كان يتولى ضبط شؤون الجباية في عهد السلطان أبي تاشفين الأول هما أبو المكارم منديل بن محمد بن المعلم، وأبو عبد الله محمد بن سعود[43]. وكانا شغلا منصب صاحب الأشغال أيضا للسلطان أبي سعيد عثمان ابن يغمراسن(681 - 703)هـ، والسلطان أبي حمو موسى الأول(707-

---

38-ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص228،229 .

39 -نفسه، ص.229.

40 -ابن مرزوق، المسند، ص285.

41 -نفسه، ص285.

42 -نفسه، ص285.

43 -ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص208، 213، 215.

718)هـ. ثلاث سلاطين لهم صاحب أشغال نفسه، وكلاهما موصوف بالأمانة والاقتدار يدل على استقرار الخطة ودرور الجباية. ولا نعرف ما إذا كان لكل واحد اختصاص معين أو أن أحدهما نائب الثاني. فالمصادر الحالية لا تسعفنا بالإجابة عن هذه الأسئلة، غير أن تلمسان توصف بدرور الجباية ووفرتها، واتساع إقليمها[44]، وحرص سلاطينها على خزن الأموال والأقوات تحسبا لخطر الحصار الخارجي[45] . ولاشك أن أمانتهما واقتدارهما على أداء الخطة على أحسن وجه سبب وجيه آخر[46]. وعليه أرى أن وصف الجباة كما جاء عند ابن مرزوق على عهد هذين الرجلين الذين هما المسؤولين المباشرين على ديوان الأشغال أو ديوان الأعمال والجبايات يبدو صعب التصديق، خاصة وأن العباد ربض تلمسان فهي ليست بعيدة حتى يعسر مراقبة الجُباة بها.

كان السلطان أبو تاشفين يُجرد حملات عسكرية لاستيفاء الجباية، خاصة في الجهة الشرقية؛ مثلا عَهِدَ لوزيره وقائد جيشه موسى بن علي الكردي سنة 725هـ "...بإرغام قبائل ناحية قسنطينة وبجاية على الطاعة فأرغمهم على الطاعة واستوفى جبايتهم..."[47]. وكانت هذه الجهة يجبيها عمال بني زيان منذ عهد يغمراسن(633- 681)هـ؛ ففي سنة 645هـ حين جهز السلطان الحفصي أبو زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جيشا وتحرك نحو تلمسان حاصرها مدة، ثم دخلها، وعقد صلحا مع يغمراسن، "...تعاقدا فيه على عداوة بني عبد المؤمن، وأقطعه بلادا من إفريقية جبايتها مائة ألف دينار إعانة على موافقة بني عبد المومن، فكانت له ولعقبه تأتيهم تلك الجباية كل سنة، لم يقطعها إلا موت الملك

44 -نفسه، ص90.

45 -ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص135.

46 -روى ابن الأحمر حكاية عن سبب حظوة علي بن المعلم لدى السلطان يغمراسن بن زيان تدل على طيب معدن الرجلين وإن أراد لها ابن الأحمر غير ذلك.(أنظرها، ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص61، 62).

47 -أبو عبد الله الأعرج، زبدة التاريخ، حساني، ص119.

أبي تاشفين واستيلاء بني مرين..."[48]. وذكر ابن عذارى أن هذا الاتفاق وقع في أواخر سنة 640هـ[49].

وعكس ما ذهب إليه ابن مرزوق فإن يحي ابن خلدون(ت 1378/780) ذكر بأن هذا السلطان لما بويع سنة 718هـ/1318م "...بسط آمال الخاصة ورفع عن العامة مبتدع الوظائف..."[50]. فهل ألغى الضرائب الظلمية في بداية حكمه ثم أعادها بعد ذلك كما أخبرنا ابن مرزوق، أم أن كتب الأسطغرافيا السلطانية لتعلي من شأن سلطان وتلبسه الشرعية تمدحه بإلغاء الوظائف المخزنية الظلمية غير الشرعية سواء كان السلطان أبو تاشفين الأول أو السلطان أبو الحسن المريني؟.

ابن مرزوق الخطيب صمم كتابه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن المريني لكي يسرد سيرة السلطان أبي الحسن المريني(731-752)هـ، وهذه السيرة ليست تاريخية علمية محضة بل إنها مدح وثناء على مزاياه الروحية، وهو كتاب جاء ليرسم لنا الصورة التي يجب أن يكون عليها الوالي أكثر مما كان عليه السلطان أبو الحسن[51]. مثلا ذكر ابن بطوطة[52] أن ضريبة الرُتب كانت تؤخذ في الطرقات، وقد ألغاها السلطان أبو عنان، وكان لها مجبى عظيم حسبه[53].كانت تُؤخذ في الطرقات على التجار بأبشع صورة من الذل والمهانة، لهذا

48 -التنسي، تاريخ بني زيان، ص.117، 118.

49 -ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص360، 361، 362.

50-ابن خلدون، بغية الرواد، ج01، ص.215.

51- ماريا خيسوس بيغيرا، دراسة كتاب المسند لابن مرزوق الخطيب، قسم الدراسة، ص67، 68.

52- وصل ابن بطوطة الى تلمسان في عهد السلطان أبي تاشفين الأول، وذكر حكاية الرسولين من إفريقية الذين وجدهما بتلمسان ،لكنه لم يذكر أي معلومة عن الضرائب في عصر هذا السلطان، والأمر نجده غريبا لأن ابن مرزوق اعتبر عهد أبي تاشفين فيه أشنع أنواع الضرائب.(أنظر، ابن بطوطة، رحلة، مج1، 1997، ص157،158).

53- ابن بطوطة، رحلة، مج4، 1997، ص.200، رشيد السلامي، رسائل سياسية غير منشورة لابن عباد الرندي، نشر ضمن كتاب متنوعات محمد حجي، 1998، ص. 511.

عاتب فيها ابن عباد الرندي[54] السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن المريني(768-774)هـ وطلب منه ازالتها عن تجار المغرب الأقصى في رسالتين وجههما إليه[55]. فهذه الضريبة التي أجحفت بالتجار كانت موجودة في عهد السلطان أبي الحسن المريني، لكن لم يذكرها ابن مرزوق.

وما يمكننا ملاحظته في هذا الخصوص أيضا هو سكوت الرحالة ابن بطوطة عن أي خبر يتعلق بسياسة السلطان أبي تاشفين الأول، رغم أنه ورد على بلاطه سنة 725هـ وتنقل في بلاده تلمسان، فمليانة فالجزائر، وبالمقابل ذكر لنا ظلم ابن سيد الناس عامل الحفصيين على بجاية، الذي صادر أموالا تركها تاجر تونسي توفي لآخر حتى يوصلها لورثته بتونس أول وروده عليها[56].

وإذا وازنا بين ما ألغاه السلطان أبو الحسن المريني في المغارب الثلاث بحسب ما جاء في المسند فإننا سنجد[57]:

أ/بالمغرب الأقصى بمدينة فاس رفع (14 لقبا):فوائد المروس، الخرص في الجنات، وظائف استغراق السلع، الالتزام، النزول، الجمون، القانون، الفطرة، ووما رفعه في البوادي: الخرص، البرنس، الضيافة، والانزال، والقاعة، والخطية، وغيرها مما سكت عنه.

ب/ ولما استولى على تلمسان وأحوازها(10 ألقاب): المطالبات في الأبواب، المغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، تضعيف المخازن في الاختفاء، وظيفة مغرم الماء، الحبل، المطوى، ايزغدن. وقال ابن مرزوق عن سبب غزو السلطان أبي الحسن المريني تلمسان

54- أبو عبد الله محمد بن الشيخ إبراهيم الرندي النفزي المعروف بابن عباد شيخ العلماء والزهاد، وإمام الصلحاء، أخذ عن الشريف التلمساني والإمام المقري وعبد العزيز القوري والآبلي، توفي سنة 792هـ. (أنظر، محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص.238).

55 - رشيد السلامي، رسائل سياسية غير منشورة لابن عباد الرندي، ص503،510.

56 -ا بن بطوطة، الرحلة، مج1، ص 153،157، 161.

57 - ابن مرزوق، المسند، ص281- 286.

بأن "...أعظم ما نقم على صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج..."[58]. لكنه لم يخبرنا كيف كان يتعرض لحاج المغرب، هل فرض عليهم ضريبة مرور أم ماذا؟.

ج/ ولما استولى على وطن إفريقية وبلاد الجريد أسقط عنهم (04ألقاب): المروس، المكوس، القطيع، وظائف على طائفة الغرباء.

نعرف أنه لم تطل مدة السلطان أبي الحسن المريني بإفريقية، ثم أن الإجمال والتفصيل يقفان حاجزا أمام حصر عدد الوظائف المرفوعة في كل إقليم، وإنما جلبنا هذا الحديث لنقف على هذه الحقيقة بالذات؛ أي أنه يصعب حصر عدد الوظائف في إقليم ما لم تتوفر لنا وثيقة مخزنية تعبر رأسا عن الضرائب، وهذا ما نفتقده لحد الآن.

من جهة أخرى فإن السلطان أبا الحسن المريني (731- 752) الذي استولى على تلمسان سنة 737هـ "... تلك الإيالة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي وثمين الذخيرة وخطير العدة وبديع الآنية وفاخر المتاع وصامت المال وضروب الرقيق..."[59]. وأنفق على ركب الحجاج المغاربة الذي وصل في شهر رمضان سنة 738هـ الى ساحل الجيزة في قفل كثير من المغرب في خدمة الست الجليلة زوجة والد صاحب المغرب "...وحضر في صحبتهم من التقادم ما لم يُسمع بحضور مثله من الغرب ولا الشرق...وهي خيول وبغال أربعمائة وثمانية عشر، فحول مائة وستة عشر، حجوره مائة وثمانية، أتباعهم خمسة بغال وتسعة وتسعين. والفحول والحجوره مسروجون ملجومون، ومن البغال منهم أربعين مسروجون، والباقي بغير سروج، وجميع الخيل والبغال عليهم أجلال ملونة في غاية الحسن، ومن ذلك بزاة اثنان وثلاثون، وحياصة مجوهرة، وسيف مجوهر وخوذة مجوهرة وتاج مجوهر، وعشرة سيوف محلاة وسرجين مجوهرين، وباقي السروج أكثرهم يسقط فضة،

58 –ا بن مرزوق، المسند، ص385.

59- ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص232،233 ، محمود مقديش، نزهة الأنظار، مج1، ص535.

وشدرات مخرومة فيها أنواع مختلفة من القماش الفاخر خمسة وخمسين حمل على بغال، وذكر أن في تقدمتهم لولو وفصوص من أفخر ما يكون[60].

مما يعبر عن ثراء هذا السلطان نجده طلب الإعانة من الرعية بالأموال للجهاد في الأندلس التي اجتاز إليها سنة 741هـ ، ومُني فيها بخسارة كبيرة[61]، فقال له أبو زيد ابن الإمام:" لا يصح لك حتى تكنس بيت المال وتصلي فيها ركعتين كما فعل عمر رضي الله عنه..."[62]. وذكر ذات الحادثة أبو راس الناصري، وقال بأنه نقلها عن التنبكتي في نيل الابتهاج، وجاء أبو راس بهذا الكلام للمماثلة بينه وبين ما قاله قاضي ألمرية للأمير يوسف بن تاشفين حين طلب المعونة للجهاد فأجابه بنفس جواب أبي زيد بن الإمام[63]. فكيف يستولي على بيت مال الزيانيين التي رأينا أنها كانت مليئة بصامت المال وغيرها من ضروب الحلي والأمتعة، ويستبيح تلمسان عند دخولها على سلطانها[64]، وينفق ببذخ على حاشيته ثم يطلب الرعية بالمعونة للجهاد في الأندلس؟.فإنه لا يحل شرعا توظيف المعونة على الرعية في هذه الحالة.

وجاء في حوار نقله لنا ابن قنفذ جرى بين الفقيه أبي محمد عبد العزيز القروي[65](ت740هـ) والسلطان أبي الحسن المريني، بأن قال السلطان

60 - ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ص.1027،1028 .

61 -ا لزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية،ص76.

62 - الآغا بن عودة، طلوع سعد السعود، ج1، ص172.

63 - أبو راس الناصري، الحلل السندسية، ج2، ص279.

64- ابن خلدون، العبر،مج7، ص131، وفي سؤال ورد على الفقيه أبي عبد الله السطي بظاهر تلمسان حول امرأة كانت وصية على ولدها ولما حضرتها الوفاة ادعت بأن "...بعض المتروك تلف بالمدرسة عند دخلة السلطان أبي الحسن تلمسان وأنها اشترت له من الثياب الصقليات..." (أنظر، الونشريسي، المعيار، ج9، ص371).

65 -الفقيه الصالح من أصحاب الشيخ أبي الحسن الصغير، قال الإمام المقري هو أكبر تلاميذ أبي الحسن علما ودينا، وكذا قال الامام ابن مرزوق الحفيد، وزاد أن تقييده عنه على المدونة أحسن تقاييده. قال ابن الخطيب القسنطيني في رحلته عبد العزيز هذا هو الذي قال له السلطان أبو الحسن المريني تخرج مع عامل

للفقيه:"...تخرج مع عامل الزكاة "، فرد عليه: "أما تستحي من الله تعالى تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم "، فضربه السلطان بالسكين ..."[66]. فهذا الموقف يبين التوتر الحاصل بين السلطان والفقيه حول مسألة المغارم السلطانية التي تأخذ لبوس المغارم الواجبة بالشرع، فالفقيه يبين صراحة رفضه لهذه الممارسة، ومع ذلك"...كان لا يُدخل شيئا من الباب حتى يعطي المغرم المعلوم..." [67]. حتى لا يمتاز على الجماعة ويكون معهم فيما وُظِّف عليهم. بمعنى أن المغارم التي تؤخذ في الأبواب كانت موجودة على عهد أبي الحسن المريني، وكان ذكر ابن مرزوق بأنه ألغاها. وفي رواية للآبلي عن الفقيه أبي الحسن المليلي الذي اختار أن يكون مرتبه من مكس الخمر في زمن السلطان المريني أبي سعيد والد السلطان أبي الحسن المريني معللا ذلك بأنه:"إذا كانت الجبايات كلها حراما، فأختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه، والخمر قل أن يبذل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه، غير أسف عليه، ولا متعلقة به نفسه، وهذه ملاحظة غريبة..."[68]. فمواقف الفقهاء من السياسة الجبائية للسلطان أبي الحسن المريني ووالده قبله تبين ذيوع ما سماه الفقيه الأخير بجبايات الحرام في عهد كلا السلطانين، مما يطرح احتمال نسبية ما تصف به المصادر السياسة العادلة للسلطان أبي الحسن

الزكاة فقال له عبد العزيز أما تستحي من الله تعالى تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم، فغضب السلطان وضربه بالسكين التي يحبسها في يده على عادته وهي في غمدها وضربه بها جملة، وقال له هكذا تقول لي، فبادر إليه الوزير وأخذ بيده وأخرجه إطفاء لغيظ السلطان، وقام السلطان إلى داره وقد اشتد وجع يده التي ضربه بها، ثم خرج وقال ردوه إلي فردوه فاعتذر إليه وقال له طيب نفسك علي فإني علمت ماقلت لي إلا الحق ،فقال له يغفر الله لي ولك فانصرف، وكان السلطان بعد هذا المجلس يزوره بداره. وكان من عاداته أنه لا يدخل شيئا من الباب حتى يعطي المغرم المعلوم، ويقول أكره أن أمتاز على الناس بشيء، توفي سنة خمسين وسبعمائة. (أنظر، التنبكتي، نيل الإبتهاج، ص.179، كفاية المحتاج، ج1، ص289).

66 – ابن قنفذ، أنس الفقير، ص24.

67 – نفسه، ص24.

68 – ابن خلدون، المقدمة، ص313.

المريني، وأنه أسقط عن الرعية مبتدع الوظائف، وفي المقابل شجبوا سياسة السلطان أبي تاشفين الأول.

3/ سياسته في النفقات:

وصف السلطان أبو حمو الثاني(760/ 1359- 791/ 1389) سلفه السلطان أبا تاشفين الأول بأنه كان يجمع المال ويُفَرِّط في الجيش، أي أنه كان لا يجزل أعطيات جنده[69]، بمعنى أنه كان يقتصد في النفقات العسكرية، خاصة مرتبات الجند، وكان حريصا على جمع المال. ووصفه الوزير الأندلسي ابن الخطيب السلماني (ت 776هـ) بحب الترف وكثرة الانفاق على بناء القصور والرياض؛ فقال عنه:"...الأمير عبد الرحمن بن موسى أبو تاشفين مشيد القصور، ومروض الغروس ومتبنك الترف الى تمام مدته..."[70]. و"...بلغ من تشييد المصانع والقصور والمتنزهات الغاية البعيدة..." [71]. وقال فيه ابن الخطيب شعرا يرسخ هذه الصفة؛ حيث قال[72]:

و حل فيها عابد الرحمان فاغتر بالملك و بالزمان
و صار فيها مطلق العنان من مظهر سام الى جنان
كم زخرفت علياه من بنيان آثاره تنبي عن العيان

الوصف ذاته نجده عند ابن خلدون(ت 808هـ)؛ حيث قال:"...وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأربى عليه؛ فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت، واتسعت أخباره على ما نذكره"[73]. وقال التنسي(ت899هـ) في ذات السياق:"...وكان مولعا بتحبير الدور، وتشييد القصور، مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة

69 - أبو حمو الثاني، واسطة السلوك، ص125، 126.

70 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص82.

71 -ا بن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص231، محمود مقديش، نزهة الأنظار، مج1، ص534.

72 - ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص.226.

73- ابن خلدون، العبر، مج7، ص126.

الأسارى...فخلد آثارا لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده ،كدار الملك، ودار السرور، وأبي فهر، والصهريج الأعظم، كل ذلك لملاذه الدنيوية"[74].

وقال أبو عبد الله الأعرج عن سياسة التعمير التي ميّزت عهد السلطان أبي تاشفين الأول متابعا في ذلك وصف من سبقوه كابن خلدون وابن الخطيب:"...وأتى من ذلك بالعجب العجاب في تشييد المصانع وتنميق الآثار وضروب الزينة ما بلغ الغاية القصوى...أغرى رجال دولته، أعيان رعيته ببناء الدور وتشييد القصور، واتخاذ الرياض والبساتين..."[75]. وقال عنه أيضا:"...بالغ في بناء القصور وتشييد المقاصف والدور وغرس الرياض ووطى القنوات للحياض، وقد استكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك فارتقى على ملوك زمانه وفاقهم في الأبهة وضخامة الملك، وظهر على عهده أجلة العلماء وأساطين حملة الشريعة من يفتخر بهم الزمان إلا أن أعجلته ميتة العز عن شد الوثاق فكان شأنه عجيبا..."[76]. وكان بأسوار تلمسان في عهد أبي تاشفين قصور عظيمة وقباب رفيعة، لكن مجانيق السلطان أبي الحسن المريني الذي حاصر تلمسان في عهد أبي تاشفين لمدة ثلاث سنوات أتت على ذلك البناء الجميل[77].

أما ابن الأحمر فقد وصف السلطان أبا تاشفين الأول بأنه كان "...لئيما بخيلا مسيكا شديد الشح..."[78]. ومصدر خبره كان ابن وزير هذا السلطان عمر بن موسى بن علي الكردي، ونقل عنه خبرا مفاده:"...كان قد حجر على سائر الحضر بيع جميع الأقوات والخضارى، ولا يبتاعها إلا هو..." [79]. فاحتكار بيع جميع الأقوات والخضر يبين سياسة السلطان القائمة على شحن تلمسان بالأقوات تحسبا

74 -التنسي، تاريخ بني زيان، ص140.
75 -أبو عبد الله الأعرج، زبدة التاريخ ، حساني، ص115.
76 -المرجع نفسه، ص123.
77 -ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص232 .
78-ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، ص 73.
79 -المصدر نفسه، ص. 73.

للحصار؛ لهذا احتكر شراء الأقوات ليخزنها ويعيد توزيعها على الرعية بنظام دقيق حتى يكفل لتلمسان الأمن الغذائي. فكيف يكون شحيحا وهو يشيد كل تلك العمائر التي بقيت ماثلة حتى عهد الاستعمار الفرنسي؟. ثم إن ابن الخطيب ذكر أنه جرت بينه وبين السلطان أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر حاكم غرناطة (ت725هـ) مراسلات ومهاداة[80]. وكان يسلف بعض ملوك أوربا الذهب، حيث جاء في رسالة مؤرخة في تاريخ 01صفر723هـ من هلال القطلاني الى ملك أراغون Jacques 02 طلب فيها ملك أراغون تحرير عدد من الأسرى المسيحيين بتلمسان، وطلب سلف ذهب وافق عليه هلال القطلاني لكن بشرط أن يعطي الرهان والضمان[81].

مجمل القول فإن السلطان أبا تاشفين كان ينفق على ملاذه الدنيوية كبناء القصور والدور والبساتين، وهو وصف لمسناه عند كل من ترجموا له، ثم على بناء الحصون، وتجهيز الجيوش لغزو الناحية الشرقية، وكان معتنيا بالعلماء وتشييد المدارس(المدرسة التاشفينية)، وغيرها من وجوه النفقات المختلفة حتى عم دولته الرخاء وزاد الاعتمار، خاصة البناء والتشييد والحرث.

نفيد من كل ما تقدم أن أبا تاشفين سلطان يحرص على تحصيل الجباية من كافة وجوهها، شديدا في محاسبة عماله، وكثير الإنفاق على المشاريع المعمارية، والأخذ بأسباب ترف الملوك، قليل الإنفاق على جيشه. ولعل السبب في حرص السلطانين أبي حمو الأول وابنه على تجميع المال ومراقبة العمال والاشتداد عليهم

80 – ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص67.

81- لاحظت على هذه الرسالة أن بها مفردات عامية. وهو لا يتماشى وسمعة كتاب الدولة في ذلك الوقت. ورسالة أخرى مؤرخة في17رجب 727هـ لغتها عربية فصيحة سليمة تختلف عن الرسالة السابقة وكان موضوعها صلح بين الملكين بواسطة ابن الملك جاقمة والثقة المكرم الأمين الحاج الأفضل أبو يعقوب يوسف بن الحوراء. وهذه الرسالة فيها عبارات التفخيم للملك Jacques 02 ، ولا توجد عبارات التفخيم الخاصة بالسلطان أبي تاشفين الأول. لهذا ينبغي أن نتعامل مع هذه الرسائل بحذر.(أنظر، Atallah dhina,le royaume Abdelouadid,p.220).

في ذلك هو أثر الحصار الطويل(698- 706)هـ؛ فالسلطان الأول للتو خرج من حصار دام سبع سنوات أنهك تلمسان اقتصاديا، ثم أنه لا يستبعد أن تعيد الدولة المرينية الكرة من جديد، لهذا كان السلطان أبو حمو مشغولا دائما بـ"...تحصيل مؤنها، وتحصين أسوارها، ولم يدع ما يحتاج إليه المحاصر لعدة سنين كثيرة حتى حصله من الأقوات والآلات...وملئت أنواح المدينة باللحم والفحم والحطب، واختزن أرض داخل المدينة كلها زرع..."[82]. الإنشغال نفسه تواصل مع ابنه أبي تاشفين"...فزادها تحصيلا من الأقوات..."[83]. وهذه الأموال بالضرورة كانت تحصل من الجباية، ففرضوا لأجل ذلك أنواعا مختلفة من الوظائف على الرعية.

وبحسب التحليل الخلدوني فعهد أبي تاشفين الأول مواصل لعهد والده الذي يتميز بالتحذلق وإحكام الحضارة، يقول ابن خلدون:"...ثم تتدرج الزيادات فيها (الوظائف المخزنية) بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة..."[84]. ومبدأ التدرج هذا يحتاج لوقت طويل جدا حتى يظهر ثقل وطأة الضرائب، يقول في هذا ابن خلدون:"...لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها، إنما تثبت على الرعايا كأنها عادة مفروضة، ثم تزيد الى الخروج عن حد الاعتدال..."[85]. وعليه يكون عهد هذا السلطان هو بداية الزيادة في الوظائف المخزنية التي لاحظها ابن مرزوق في المسند.

4/الوضع الاقتصادي في عهد السلطان أبي تاشفين الأول:

يمثل الوضع الاقتصادي المرآة العاكسة للسياسة الضريبة للدولة، فكلما كانت الضرائب قليلة، وجبايتها عادلة زاد الاستثمار وازهرت البلاد، والعكس يحدث

82 –ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص135.

83 – المصدر نفسه، ص135.

84 –ابن خلدون، المقدمة، ص218.

85– المصدر نفسه، ص218.

إذا زادت الضرائب زيادة فاحشة، لهذا سأحاول التعرف على الوضع الاقتصادي في عهد هذا السلطان بحسب ما توفر من مصادر.

بلغت دولة بني زيان أوج اتساعها في عهد السلطانين أبي حمو الأول(707-718)ه وأبي تاشفين الأول(718- 737)ه، حيث امتد مجالها مابين ملوية غربا عند حدود وادي يسر، الى غاية دلس شرقا، وحتى بجاية[86]، ففي عهد السلطان أبي تاشفين الأول وصل حدها الشرقي الى وادي بجاية الذي بنى فيه مدينة تمزريت لمحاصرة بجاية[87]. قال ابن خلدون عن هذه المدينة:"...واختط بمكان سوق الخميس على وادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب بها على بجاية..."[88]. وذلك سنة 726ه، فتمت لأربعين يوما وسميت "تامزيزدكت" باسم الحصن القديم الذي لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجدة[89]. وكان للسلطان أبي تاشفين قائدا إسمه موسى بن علي، وهو الذي أمره ببناء مدينة تمزريت الشرقية الى وادي بجاية[90]. وعامله يحي الجمي أمره بتجهيز الجيوش لغزو تونس[91]. فربما يكون هو عامله على هذه المدينة بعد إتمام بنائها من طرف القائد السابق الذكر.

لقد استقام الأمر للسلطان أبي تاشفين الأول، وتمهد له القطر بعد صلحه مع السلطان المريني أبي سعيد"خدن العافية"[92]حسب وصف ابن الخطيب[93]. يؤكد ما

---

86 -Atallah Dhina ,le Royaume Abdelouadid à l'epoque , p17 ,19.

87 -الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص162.

88 -ابن خلدون، العبر، مج7، ص128.

89 -المصدر نفسه، ص.128.

90 -الآغا بن عودة، طلوع سعد السعود، ج1، ص162.

91 -المصدر نفسه، ص162.

92 - قال عنه الصفدي:"...كان ذا حلم وركون الى السلم ، فأهمل أمور الجهاد ،فامتلأت عليه بالوبال الربا والوهاد وامتدت أفنان الفتن ...وعلا في أيامه أمر الغلاء ...إلا أنه كان له نظر في العلوم...وتوفي رحمه الله تعالى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وله بضع وستون سنة"(أنظر، الصفدي، الثالث من أعيان العصر وأعوان النصر، ص245.

93 -ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص231،232 .

ذهب إليه ابن الخطيب حديث المدجن عبد الله بن الصباح الأندلسي، الذي جاء الى المغرب حاجا في النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، عن السلطان أبي تاشفين الأول نقلا عن علج من علوجه:"الملك أبو تاشفين الأول كان له دولة وإنعام، وسعادة جملة دهور وسنين وشهور وأعوام، ودامت عليه دولة تمهيد في البلاد وقهر للرعية والعباد، وكان في خدمتها وزارات وإمارات وقياد مثل القايد هلال وغيره من القياد، كانت دولة عظمة ومكنة وعدل وصدقة وإيثار وأعوام خصبة واطمئنان وعافية في البلاد وسعادة في العمار بالرشاد، بنى البلاد وشيد القصبات والأسواق والمساجد وزين البلاد، وكانت مملكته عظيمة حتى كان يفتخر على ملوك العرب بالمال والخزاين والحرث والنسل وزينة الثياب وكنوز الذهب والفضة والذخاير من الجوهر النفيس واللؤلؤ والزمرد والقدرة الواسعة بالمال والعبيد والوصفان...يفتخر على ساير ملوك المغرب بالعدة والشدة والقوة"[94]. فهذا الوصف يبين أن عهد أبي تاشفين الأول كان مترفا، والاعتمار كان كبيرا خاصة البناء والتشييد والحرث. وينقل مرمول كربخال عن أحد المؤلفين ولم يذكر اسمه أن مدينة تلمسان أصبحت في عهد أبي تاشفين الأول من العظمة بمكان، حتى أنها تضم ستة عشر ألف دار مسكونة وتقام فيها أغنى تجارة التي هي تجارة الذهب[95].

ويظهر ثراء الدولة الزيانية في عهد هذا السلطان من خلال ما غنمه السلطان أبو الحسن المريني حين دخل عليه حاضرته تلمسان سنة 737هـ/1337 فقد وجد الخزينة ملئا من صامت المال[96]، واستولى "...على تلك الإيالة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي، وثمين الذخيرة، وخطير العدة، وبديع الآنية، وفاخر المتاع، وصامت المال، وضروب الرقيق..."[97]. هذا الوصف يشبه كلام ابن الخطيب فمقديش كثيرا ما ينقل عنه، يقول ابن الخطيب عن تلمسان لما استولى عليها

94 – عبد الله بن الصباح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص92، 93.

95 – كربخال، إفريقيا، ج2، ص 302.

96 – الناصري، الإستقصا، ج4، ص125.

97 – محمود مقديش، نزهة الأنظار، مج1، ص535.

السلطان المريني المنصور:"...واستولى السلطان صاحب المغرب على تلك الإمارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي، وثمين الذخيرة، وفاخر المتاع، وخطير العدة، وبديع الآنية، وصامت المال وضروب الرقيق..."[98]. فتلمسان لما استولى عليها أبو الحسن المريني كانت تتميز بالثراء وإحكام الصنائع والأخذ برونق الحضارة، مما جعلهم مطمعا لبني مرين وحتى جيرانهم الحفصيين، ورغم تلك الصعاب التي كان يواجهها سلاطين بني زيان فإنهم سرعان ما يستعيدون ملكهم، فهم كما قال ابن الخطيب:"...هذا القبيل النجيب قريب الإفاقة سريع الفيئة سهل الجبر بعد الكسر"[99].

إن عصر أبي تاشفين يبدو فيه الاعتمار كبيرا، وحتى جملة الجباية كانت مرتفعة بحسب صامت المال الكثير الذي كان في بيت المال، وعليه فالضرائب كانت قليلة. لكن بحسب الضرائب التي عرف بها ابن مرزوق فإن الوظائف كانت كثيرة حتى على ضروريات الحياة. فهل هذا يعني أن ابن مرزوق بالغ في التشنيع بدولة السلطان أبي تاشفين الأول لتبييض صفحة سلطانه، أم أن قانون التدرج هو التفسير المنطقي لهكذا وضعية، فالأثر السلبي لكثرة الضرائب يظهر بعد مدة طويلة حين تزيد زيادة فاحشة لا تتأتى معها أي فائدة.

خاتمة:

في الأخير أقول بأنه لا يسعني تكذيب نص ابن مرزوق في ظل وجود نص أبي حمو الثاني الذي وصف أبا تاشفين بجمعه للمال، وإجماع المؤرخين على كثرة نفقاته على ملاذه الدنيوية من بناء القصور والبساتين وغيرها، وكلاهما صفتان تدفع الحاكم الى استحداث ضرائب جديدة لتغطية النفقات المتزايدة. لكن كونه النص الوحيد المتوفر، ثم أنه يكتب عن مناقب غريمه السلطان أبي الحسن المريني، فالأكيد سيبيض صفحة ممدوحه، وبالمقابل يشنع بسياسة خصمه أبي تاشفين. لهذا أقول بأن البحث في هذه الإشكالية يبقى رهين ظهور نصوص جديدة

98 - ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص232،233 .

99 - المصدر نفسه، ص233 .

عن فترة هذا السلطان نقابل بها النص اليتيم لابن مرزوق، خاصة وأن ابن مرزوق قد سكت عن قبائح سجلت على عهد السلطان أبي الحسن المريني من مكوس وضريبة رتب وغيرها، وبالمقابل شنع بسلطان تلمسان، الذي مدحه كما رأينا بعضهم، وسكت آخرون عن ذلك كابن بطوطة. وعليه فالوثائق المخزنية التي تضم سجلات المجابي هي التي تقطع الشك باليقين، لكن للأسف هذا النوع من الوثائق ما يزال مفقودا، ولم نهتدي الى أي وثيقة بهذا الخصوص. فالباب يبقى مفتوحا لمزيد من الأبحاث، بحسب ما يظهر من وثائق مخزنية من تراثنا المخطوط.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن الأحمر إسماعيل، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ، الرباط، المملكة المغربية، ط2، 1991.
2- ابن الأحمر إسماعيل، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان،
3- ابن الأحمر إسماعيل، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001.
4- ابن الجزري شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه،تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، 3ج، 2006.
5- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين(ت 776ه)، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2مج، 1973.
6- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دراسة وتحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009.
7- ابن الخطيب لسان الدين، شرح رقم الحلل في نظم الدول،أعده للطبع وعلق عليه وقدم له عدنان درويش ،وزارة الثقافة، دمشق، 1990.

8- ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المملكة المغربية، 4مج، 1997.

9- ابن خلدون أبو زكريا يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ج01، 1980.

10- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، مج7، 1992.

11- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1993.

12- ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982.

13- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985.

14- ابن فضل الله العمري أحمد بن يحي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، من الباب الثامن الى الباب الرابع عشر، جزء المغرب والأندلس وما وراء الصحراء، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، 1988.

15- ابن قنفذ أبو العباس أحمد الخطيب، أنس الفقير وعز الحقير نشر وتحقيق محمد الفاسي، أدولف تور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965 .

16- ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 2008.

17- ابن مرزوق محمد التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

18- ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
19- أبو حمو العبد الوادي، واسطة السلوك في سياسة الملوك،مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1379/ 1862.
20- أبو راس الناصري محمد بن الناصر، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية أو الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب،تحقيق سليمة بنعمر ،دار صنين للطباعة والنشر جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، ليبيا ، 2ج، 2002.
21- أبو عبد الله الأعرج، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، نشر حساني مختار، ضمن كتاب بعنوان التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج، منشورات الحضارة، الجزائر، ج1، 2009.
22- الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر،دراسة وتحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر ، الجزائر، 2ج، 2009.
23- التنبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، بهامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون،دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).
24- التنبكتي أحمد بابا،كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج،دراسة وتحقيق محمد مطيع،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية ،2ج،2000 .
25- التنسي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان،مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
26- الزركشي أبو عبد الله محمدبن ابراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
27- السلامي رشيد، رسائل سياسية غير منشورة لابن عباد الرندي، منشور ضمن كتاب متنوعات محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1998.

28- الشاطبي أبو اسحاق ابراهيم بن موسى الأندلسي(ت 790هـ)، الإفادات والإنشادات، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983

29- الصفدي صلاح الدين، أعيان العصر وأعوان النصر، ج3، تحقيق خالد كثير، لنيل شهادة التعمق في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، تونس، جانفي 1993.

30- عبد الله بن الصباح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تهذيب وتعليق محمد بنشريفة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، المملكة المغربية، 2008.

31- كربخال مرمول، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، 3ج، 1988- 1989.

32- المجاري أبو عبد الله محمد الأندلسي(ت 862هـ)، برنامج المجاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.

33- مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج1، 1988.

34- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، المملكة المغربية، ج4، 2001.

35- النباهي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المعروف بتاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

36- الونشريسي أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ،خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،13ج، 1983.

37- Atallah dhina ,le Royaume Abdelouadid,p a l'époque d'Abou hamou moussa 1 et d'Abou tachfin 1,office des publications universitaires ,Alger, 1985.